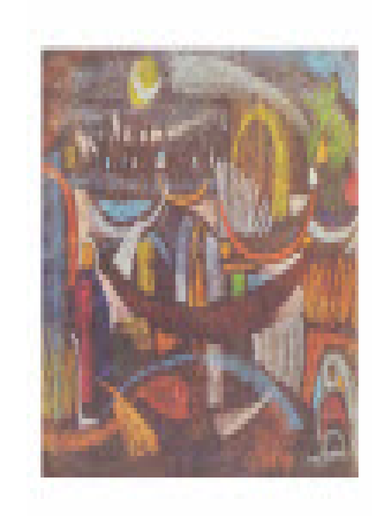




للمجلات الأدبية والثقافية العربية





الأقلام

تصفح العدد

عنوان المقالة: اللغة نشوؤها وأهميتها

بقلم: نوري جعفر

رقم العدد: 2

تاريخ الإصدار: 1 فبراير 1982

العودة لمقالات العدد

اللغة نشوؤها وأهميتها

د. نوري جعفر

نود أن نبين ابتداء ان تفسير نشوء اللغة وتطورها لدى النوع الانساني مازال موضع خلاف بين المعنيين من اصحاب الاختصاص منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر / ويلوح ان هذا الاختلاف ناجمٌ في الاصل عن اختلاف الباحثين في المصادر او المنابع التي تستند اليها تفسيراتهم، فهناك فئة من الباحثين تأخذ نقطة انطلاقها من «التاريخ اللغوي» Linguistic History [(١)] وبعض آخر يستند على دراسته المميزات الدقيقة لجماجم وفكوك الانسان المنقرض [(٢)].

وهناك ايضا في الوقت الحاضر نزعة جديدة في دراسة اصل اللغة وارتقائها تاخذ بالابتعاد عن الاسلوبين التقليديين المشار اليهما وتستخدم اسلوبا جديدا توصلت فيه الى استنباطات علمية جديدة بالغة الاهمية: وهي تاخذ نقطة انطلاقها من القيام بدراسات مقارنة بين دماغ الانسان وأدمغة القردة العليا المعاصره [(٣)]

مما لاشك فيه ان حياة الانسان الفعلية - على مستوى النوع الانساني ومن الناحية الفردية - قد اكتسبت بنشوء اللغة (التحدث بها في اول الامر ثم المدونة بعد ذلك وعلى اساسه) صفة جديدة في مجرى عملية النشوء والارتقاء من الناحيتين البايولوجية المختصة والاجتماعية الثقافية على حد سواء، وهذا هو احد الاسس العامة التي تميز الانسان الحديث عن اسلافه (البشريات المنقرضة) وعلى الحيوانات الراقية القريبة منه في سلم التطور البايولوجي، وقد ادى ذلك - في اخر المطاف - عبر سلسلة من المراحل التطورية المتلاحقة الى نشوء الفكر (بمعناه الانساني المحض): الفكر المرتبط باللغة والى ارتقائه ايضا في مجرى الحياة الاجتماعية التي ينفرد بها الانسان.

كما ادى ايضا الى نشوء نمط جديد من العلاقة بين الانسان والبيئة التي يعيش فيها (الطبيعية والاجتماعية) وفهمها والكشف عن قوانينها وتسخيرها لضمان استمرار بقائه وتقدمه على الصعيدين المادي والنفساني.

لقد حدث نشوء اللغة وارتقاؤها في مجرى حياة الانسان في كل من جوانبها واسسها الحجمية وفي محتواها او مضمونها على سواء.

فقد نشأت - على الصعيد الجسمي - ثلاثة مراكز لغوية خاصة في دماغ الانسان ينفرد بها دون ادمغة سائر الحيوانات مرتبطة بحاستي السمع والبصر وبجهاز النطق.

معنى هذا وجود ثلاثة مراكز مخية خاصة باللغة في القسم الامامي الاعلى الايسر من القشرة المخية: احدها واقدمها من الناحية النشوئية المركز المخي المسؤول عن الكلام المسموع المرتبط بجهاز السمع ويبدأ بممارسة وظيفته على المستوى البدائي بعد الولادة بقليل، اما المركز المخي اللغوي الثاني فهو المسؤول عن الكلام المنطوق به المرتبط بجهاز النطق (اللسان والشفتين والحبال الصوتية) ويبدأ بممارسة عمله بشكله البدائي منذ بداية النصف الثاني من السنة الاولى في حياة الطفل، واما المركز المخي اللغوي الثالث فهو المسؤول عن الكلام المكتوب او المدون والمرتبط بجهاز البصر، ويبدأ بممارسة وظيفته (القراءة) بشكلها البدائي منذ بداية السنة الثالثة.

ولا بد من الاشارة [illegible] «المراكز المخية اللغوية» لايعني ان هذه المراكز مناطق مخية طوبوغرافية محددة. بتحجر منذ الولادة بل هي امكانيات مخية مرنة او مجاميع من الخلايا العصبية المتخصصة المتعاونة والمتبادلة الاثر فيما بينها وبين كل منها وبين الاقسام الجسمية ذات العلاقة، وما يصدق على المراكز المخية اللغوية يصدق ايضا على الاقسام الجسمية المرتبطة بها وعلى محتوى اللغة كما سنرى.

ذلك ما سيتصل بنشوء المراكز المخية اللغوية وتطورها، اما ما سيتصل بنشوء ادوات الكلام الجسمية الاخرى وتطورها فقد عبر عن نفسه على النحو التالي:

بالنسبة للكلام المسموع المرتبط بتطور جهاز السمع بالدرجة الاولى، وبالنسبة للكلام المنطوق به يتطور جهاز النطق (اللسان والشفتين وجهاز النطق) وبالنسبة للكلام المقروء يتطور جهاز البصر، مع حصول تغييرات جسمية اخرى ذات علاقة بالكلام كالعضلات وتجويف الفم وعظمة الفك الاسفل او الحنك وتضاؤل الانياب وعضلات الاذنين (التي يتعذر تحريكها بخلاف ما عليه الحال عند القردة مثلا) وتقلص الفصين الصدغيين (بفعل اتساع الفصين الجبهيين والجداريين).

يتضح اذن ان الادوات الفسلجية للغة (المراكز المخية اللغوية واجهزة الجسم الاخرى ذات العلاقة التي اشرنا اليها) قد نشأت وتعرضت لعملية تطورية طويلة الامد الى ان وصلت الى وضعها المتكامل الحديث، وهذا يصدق ايضا على محتوى اللغة (الكلمات والجمل والعبارات واساليب التعبير الشفوية والمكتوبة) التي نشأت وتطورت تاريخيا جنبا الى جنب مع نشوء ظروف العيش الاجتماعية وتطورها.

معنى هذا ان اللغة من حيث هي ظاهرة اجتماعية نشأت في مجرى نشاط الانسان الاجتماعي وفي زخم فعاليته الطبيعية (بعد ان نضجت معها وبتأثيرها وتمهيداً لها) امكانيات فسلجية خاصة تَتَعَلَّقْ بالجهاز العصبي المركزي وجهاز النطق وحاستي البصر والسمع بالشكل الذي تحدثنا عنه.

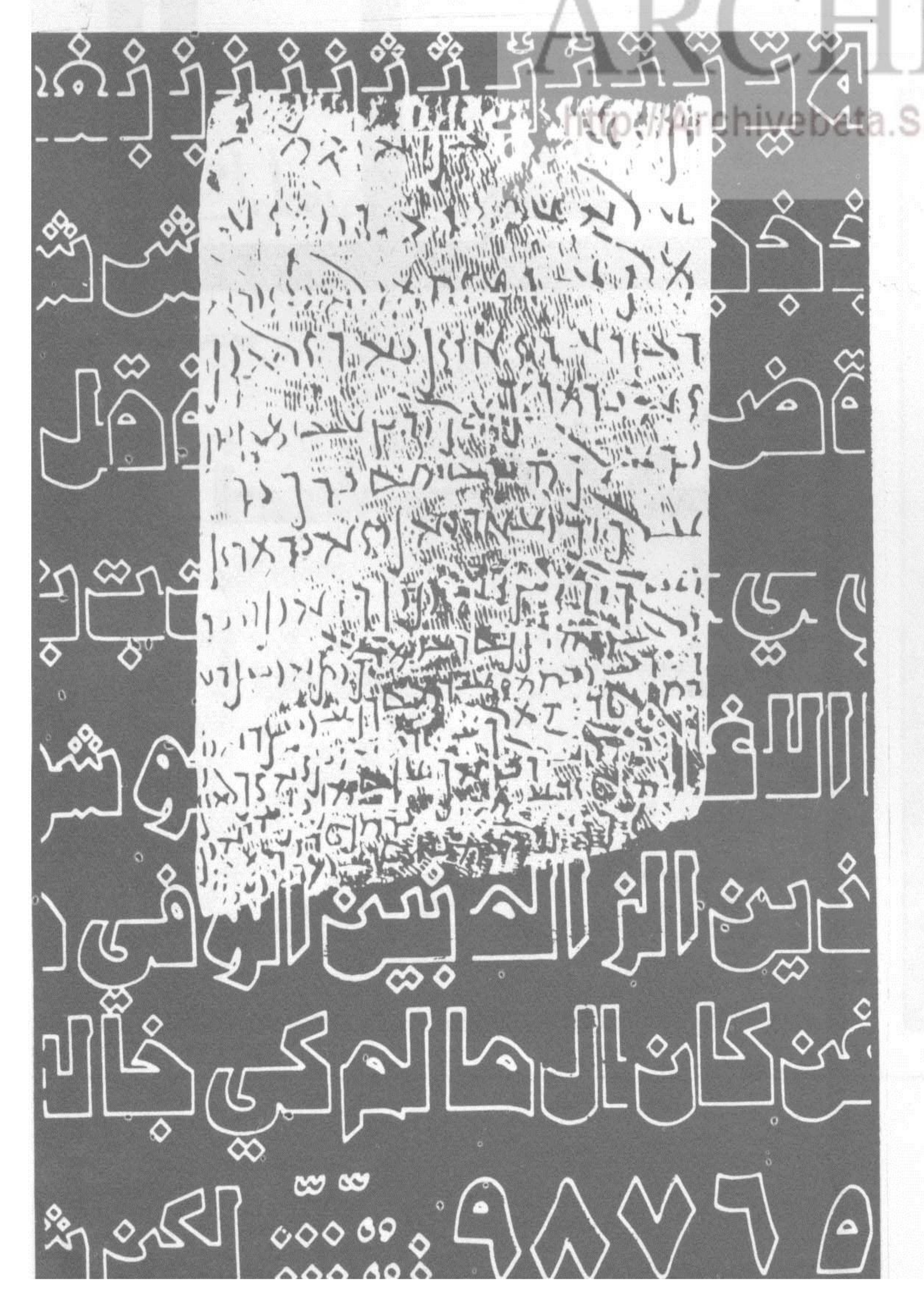
لقد كانت اللغة في بدايتها مجموعة اصوات مبهمة ليست بذات مقاطع واضحة تماما كاجهزتها الفسلجية البدائية اول الامر.

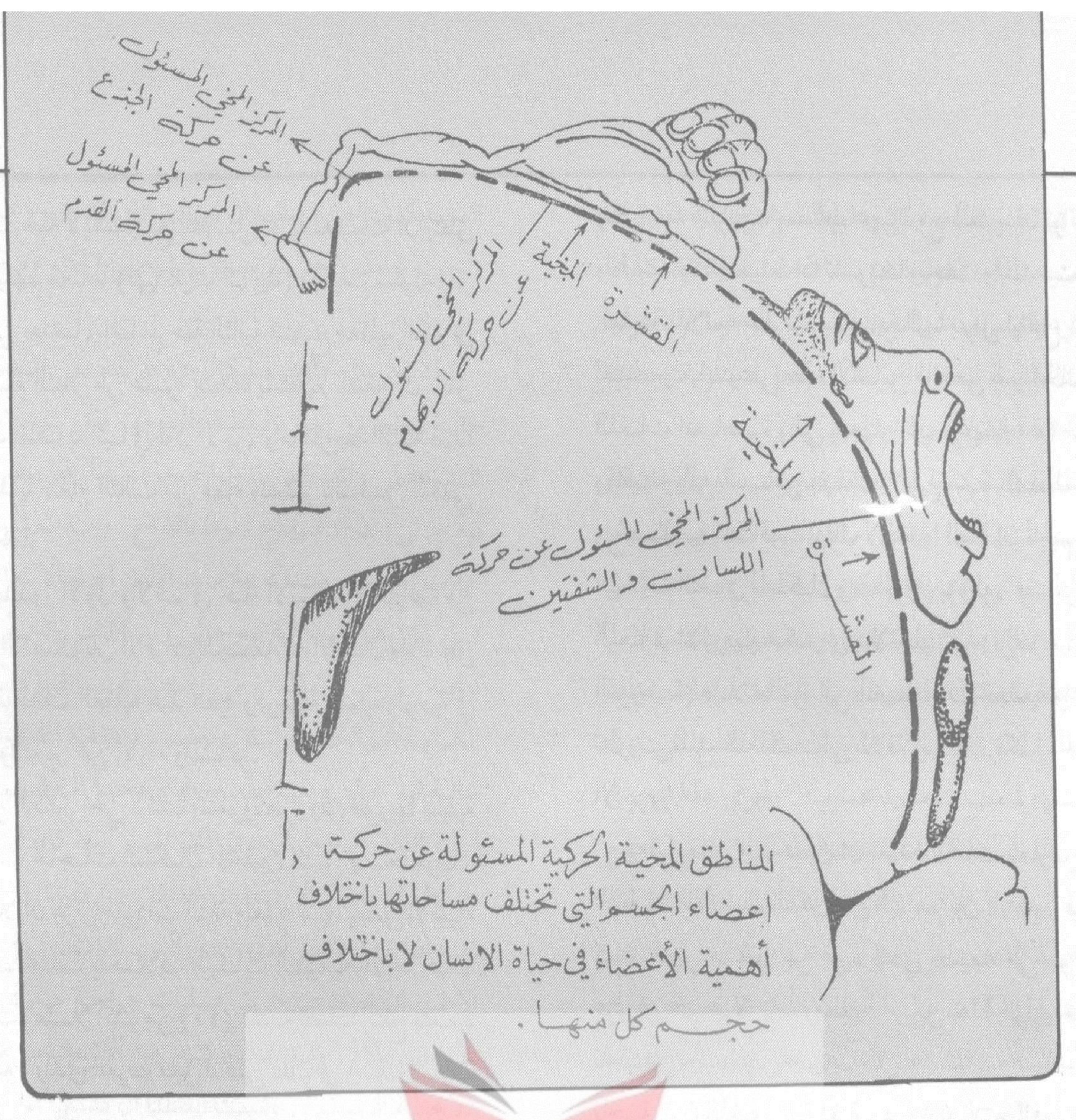
فاللغة اذن تكونت بابسط اشكالها التعبيرية البدائية (من حيث هي اصوات عامة مبهمة) لدى بعض اسلاف الانسان القدامى في وقت اكتشاف النار وظهور بواكير الحياة الاجتماعية المشتركة المبذولة للتغلب على قوى الطبيعة العاتية (الجامدة كالامطار والرياح والحية كالحيوانات المفترسة) منذ نهاية العصر الحجري الاقدم قبل اكثر من مليون سنة.

معنى هذا - بعبارة اشمل - ان الحاجة الى الكلام باعتباره وسيلة التفاهم بين افراد المجتمع البدائي القديم وتنسيق جهودهم قد نشأت اثناء الصراع ضد قوى الطبيعة المخيفة لكسب العيش وصد الاعداء، وقد اتاح اكتشاف النار وتجمع الافراد حولها فرصة نادرة مواتيه لتطور الكلام، اي ان استخدام النار رافقه بالضرورة تطور الكلام المنمق artiulate speech وكانت الكلمات البدائية المحدودة العدد التي استعملها الانسان القديم بسيطة غير متميزة المقاطع وتحمل اصواتا غير واضحة المعالم ولاجذابة النغمات، ويعود السبب في ذلك - من الناحية الفسلجية - الى بدائية جهاز النطق بالدرجة الادنى، غير أن الكلام اخذ بالاتساع والتحسن بمرور الزمن الى ان وصل الى وضعه المستقر الراهن، أي ان الكلام نشأ تدريجيا من حيث هو ظاهرة اجتماعية عندما اصبح لدى الانسان البدائي مايقوله وعندما تطورت ادواته الفسلجية.

لقد كان للمشي المنتصب واستعمال اليدين لتحقيق اغراض اجتماعية جديدة بدلاً من اسناد الجسم وعندما تطور الجهاز العصبي المركزي وجهاز النطق. لقد ادت اللغة بدورها الى حدوث تطور لاحق في ادواتها الفسلجية وهكذا دواليك، كما اصبح الكلام المنمق عاملا في تطور عضلات الوجه وتعبيراته او قسماته، يتضح هذا على صعيد النوع الانساني في مجرى تاريخه الطويل كما يتضح ايضا في نمو الفرد منذ الولادة حتى النضج، وقد احدث نشوء اللغة وارتقاؤها - من حيث محتواها الاجتماعي ومن ناحية اداتها الفسلجية - تبدلا جذريا ونوعيا في حياة الانسان من ناحية تكديس الخبرة الاجتماعية ونقلها من شخص الى اخر ومن جيل الى جيل.

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول ان تعلم الانسان اللغة





المناطق المخية الحركية المسئولة عن حركة أعضاء الجسم التي تختلف مساحاتها باختلاف أهمية الأعضاء في حياة الانسان لا باختلاف حجم كل منهـا .

يستلزم توافر عنصرين رئيسيين متميزين ومتلاحمين في آن واحد هي الجانب الفسلجي الجسمي (الادوات الفسلجية كالمراكز المخية والاجهزة الجسمية المرتبطة بها) والجانب الاجتماعي (محتوى اللغة)، وان كلا من هذين الجانبين وان كان شرطا لابد منه لتعلم اللغة الا انه لوحده غير واف بالمرام، وهذا واضح في اخفاق الحيوانات الراقية تعلم لغة الانسان رغم الجهود العلمية المبذوله وذلك لفقدانها الادوات الفسلجية من جهة واخفاق الاطفال الذين اختطفتهم الحيوانات في سن مبكرة وعاشوا بينها فترة من الزمن في تعلم اللغة عند عودتهم الى احضان المجتمع رغم توافر الامكانيات الفسلجية وذلك لفقدانهم اللغة بمحتواها الاجتماعي من جهة ثانية.

لاشك في ان الكلمة (المتحدث بها والمكتوبة) هي اكثر من مجرد صوت نسمعه اورمز مدون نقرأه فهي بالاضافة الى ذلك تحمل معنى متفقا عليه: اي انها ترمز الى شيء اوتدل عليه اوتشير اليه او تعبر عنه وإن الانسان يستجيب لهذا المعنى وليس للصوت المسموع في حد ذاته اوللرمز المكتوب والكلمة تتصف بالتجريد abstraction والتعميم gensalization فكلمة «كرسي» مثلا هي تجريد عن الكرسي المادي: بحيث اننا نتحدث عن الكرسي المادي مع فقدانه اثناء الكلام كما نفعل نحن الان، وهي تعميم بمعنى انها تدل على جميع الكراسي التي استخدمها الانسان في الماضي ويستخدمها الان وفي المستقبل بصرف النظر عن حجمها ولونها وثمنها والمادة التي صنعت منها، وما يصدق عن كلمة «كرسي» يصدق ايضا على الكلمات الاخرى التي لاتكاد تقع تحت حصر.

وهذا هو الذي يجعل الانسان يصف بكلمات محدودة العدد نسبيا كل ما في الطبيعة والمجتمع من اشياء مادية لاتُحصى ومن معارف غزيره تكدست عبر التاريخ، وقد ثبت ان الكلمات التي يسمعها الطفل من الراشدين المحيطين اثناء السنة الاول من عمره هي بالنسبة له ظواهر فردية متفرقة ينقصها التجريد والتعميم فكلمة «ماما» يقتصر معناها في اول الامر على امه وحدها دون سائر الامهات ولكلمة «طعام» تعنى ما يتناوله هوفقط، وهكذا في سائر الكلمات ثم يتسع معناها بمرور الزمن فتشمل كلمة «ام» امهات الاطفال الاخرين وامهات الامهات وامهات الحيوانات وكذا الحال في الكلمات الاخرى، ويلعب مستوى ثقافة المجتمع الذي يترعرع فيه الطفل دوراً ملحوظاً في سعة مفرداتهِ وفي اتساع معنى كل منها.

وتدل الملاحظة الواعية في مجرى الحياة اليومية المعتادة كما تدل الدراسات الميدانية على ان الطفل يمر اثناء نموه اللغوي بمراحل تطوريه ثلاث متكاملة متلاحمه ومتبادلة الاثر: أولها وادناها وابسطها مرحلة التقاط بعض الكلمات التي يسمعها من الكبار المشرفين على تربيته المتعلقة بتسمية بعض الاشياء المادية المحسوسة والمنطوية على بعض الاوامر والتوجهات السلوكية النشيطة منذ النصف الاول من العام الاول بعد الميلاد.

وفي هذه المرحلة لايستطيع الطفل الا بصعوبة ان ينطق بالكلمات التي يفهم معناها (فهما بدائيا كما بينا) ويكيف سلوكه وفق مستلزماتها الى حدما، اما المرحلة الثانية فتتضح معالمها الكبرى منذ بداية العام الثاني من عمره عندما يستطيع الطفل ان ينطق ببعض الكلمات نطقا بدائيا في اول الامر، واما المرحلة الثالثة فتبدأ بواكيرها في بداية العام الثالث من عمره وتستمر بالتحسن الكمي النوعي مدى الحياة.

تقوم اللغة بالدور الاول والاهم في حياة الانسان الاجتماعية من حيث هي اداة الاتصال بين الافراد والمجتمعات والاجيال واداة نقل المعرفة ونشوء الوظائف العقلية عند الفرد والوسيلة السايكولوجية في تنظيم السلوك والتعبير عن الاراء والمشاعر.

واللغة ـ مثل الكائن الحي ـ تنشأ وتنمو وتتطور وفق ظروفها البيئية ووفق مستلزمات حاجات السكان المحليين الذين يستخدمونها، ولهذا نجد مثلا ان غزارة مفردات اللغة وتعدد اسماء بعض الاشياء والظواهر كلها تختلف باختلاف البيئات الطبيعية والاجتماعية، فلدى الاسكيمو مثلا اكثر من (٤٠) كلمة تصف الثلج بتعدد اشكاله ومواسمه، ولدى العرب مايزيد على ذلك في وصف السيف او الفرس او الجمل والصحراء [٣].

ولدى الشعوب المختلفة في تطورها الاجتماعي مقدار ضئيل من الكلمات التي تعبر عن الامور المجردة او المفاهيم العقلية Conection . وفي كثير من اللغات المعاصرة يتعذر وجود مصطلحات خاصة للتعبير مثلا عن ادوات السيارات او المصطلحات العلمية الحديثة.

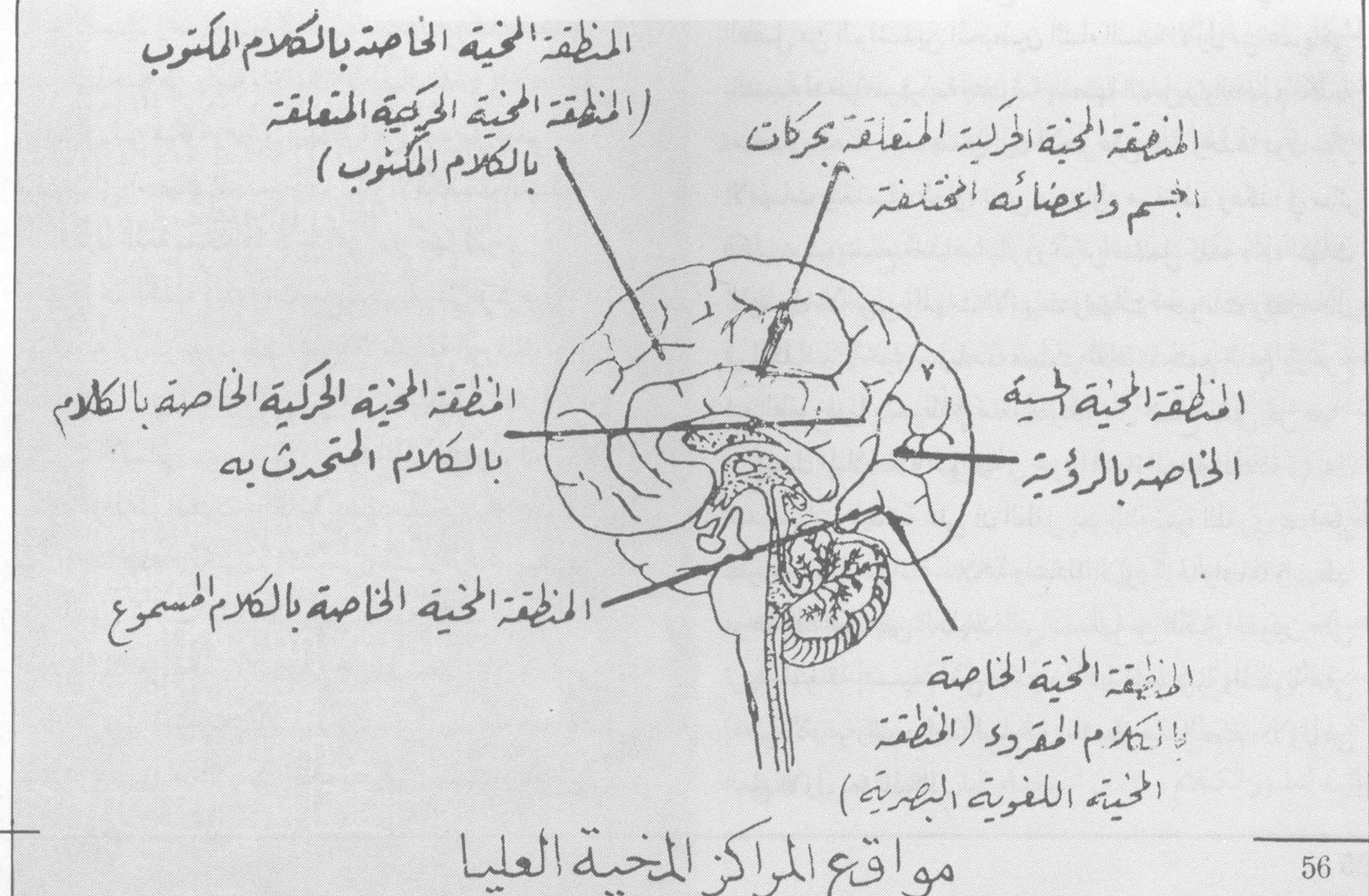
ولكن هذه اللغات بمستطاعها ـ مع ذلك ـ ان تواكب سير العلم والحضارة الحديثة اذا تشربت ونحتت وابتدعت المصطلحات العلمية الملائمة عند نشوء الحاجة اليها بفعل ارتفاع المستوى الثقافي للناطقين بها. وعلى هذا الاساس فانه من غير الجائز علميا تقسيم اللغات المعاصرة (التي يتجاوز مجموعها ٢٥٠٠ لغة) الى بدائية وراقية على اساس فقدان الاولى منها المصطلحات العلمية والحضارية المعاصرة وذلك لان هذا الفقدان ناجم في الاصل عن التخلف الثقافي للسكان وانه يزول بزواله. فقد مر زمن كانت فيه اللغات الاوربية الكبرى (الانكليزيه: الفرنسية: الالمانيه: الروسية) مثلاً مفتقرة الى المصطلحات العلمية والحضارية. وكما تطورت تلك اللغات بتطور ثقافة السكان فكذا الحال في اللغات الاخرى.

يزعم بعض الباحثين ان تعدد اللغات يتعارض مع مبدأ كون اللغة اداة الاتصال الفكري او التفاهم بين الناس. فكل لغة برأيهم كيان خاص مستقل عن غيره يؤدي بطبيعته الى عزل الناطقين بها عن غيرهم عزلا تاماً ومطلقاً. ولكن هذا الرأي مردود عليه من ناحيتين:

ناحية كون اللغة ـ اية لغة ـ هي اداة الاتصال بين الناطقين بها.

ومن ناحية الروابط التاريخية بين اللغات التي هي بعد التحليل الدقيق ذات اصل مشترك أخذت بالتعدد في مجرى التاريخ لعوامل جغرافية محلية استلزمتها ظروف العيش في اماكن متباعدة ومنعزلة.

ومن الجهة الثانية فان اللغات المعروفة في الوقت الحاضر بصورة



مواقع المراكز المخية العليا
في نصف الكرة المخية الايسر

خاصة تشترك في تعبيرها عن كثير من الظواهر البيئية المشتركة (الشمس: القمر: الماء: الهواء الخ) بالفاظ متعددة ومختلفة كما ان تركيبها النحوي والصرفي متماثل في كثير من الوجوه. وان غزارة مفردات بعضها بالنسبة لبعض آخر نشأت بفعل مستلزمات الحياة وطبيعة البيئة المحلية الجغرافية والاجتماعية.

تتشرب الكلمة (اية كلمة في اية لغة) بجوانب انفعالية مختلفة الدرجات بالنسبة لمن يكتبها او ينطق بها وبالنسبة للقارئ والسامع (بالاضافة بالطبع الى محتواها الفكري الخالص: معناها المتفق عليه). فكلمة «جمل» مثلا أو «سيف» او «صحراء» بالنسبة لابن الصحراء ترتبط عموما بمشاعر ايجابيه أو سلبية ذات درجات مختلفة العمق بالنسبة للقبائل والافراد. هذا بالاضافة بالطبع الى كون تلك الكلمات اسماء لِمُسَمَّيات مادية محسوسة. وتجري هذا المجرى ايضا المصطلحات العلمية بالنسبة للمتخصصين في فروع العلوم الطبيعية والانسانية وفي الادب والفن. ولهذا فان ترجمة التراث الادبي - وبخاصة الشعر - من لغة الى اخرى تقتصر في الاعم الاغلب وفي (فصل الحالات على الجوانب الفكرية الضيقة وتترك وراءها ثروة ضخمة من المشاعر لاتقوى على نقلها من لغتها الاصيلة الى اية لغة اخرى.

واذا توخينا الدقة في التعبير عن الجوانب الانفعالية للكلمات اصبح بمقدورنا القول ان لكل لغة جوانبها الانفعالية التي تختلف باختلاف الافراد حسب تغير طبيعة ارتباطاتهم بِمَدْلولِها وعمق اثر ذلك المدلول في مجرى حياتهم العامة والمهنية من جهة وباختلاف الفرد نفسه حسب تغير طبيعة علاقاته بمدلولها اثناء تطوره الفكري الثقافي من جهة اخرى فكلمة «قطه» مثلا (المنطوق بها او المكتوبة في اية لغة) تثير في ذهن السامع او القارئ وفي ذهن المتحدث او الكاتب صورا ذهنية متعددة وانفعالات خاصة مرتبطة بها.

فالصورة الذهنية لدى الشخص الاعتيادي هي غيرها لدى المختص بعلم الاحياء. وهي في ذهن من كانت له اثناء الطفولة علاقة سلبية بالقطة غيرها عند صاحب العلاقة الايجابية. ومن الجهة الثانية فان للقرينة او السياق Context أهمية خاصة في تفسير طبيعة كثير من معاني الالفاظ المألوفه فكلمة «صرف» يختلف معناها عند اللغوي عنه عند المحاسب. و«ابن العميد» يعني احيانا عميد الطلبه واحيانا اخرى الكاتب المعروف وهكذا، وقد ثبت ان للكلمات اثرا فسلجيا في حياة الانسان الانفعالية السلبية والايجابية. وهذا هو اساس ما يسميه علماء النفس المعاصرون ظاهره (الايحاء السايكولوجي) فسيلان لعاب الفم قد يثيره مجرد نطق كلمتي «ليمون حامض وقد يثيره لدى الشخص الجائع وصف وجبة طعام يحبه.

وقد اجريت تجارب سايكولوجية طريفة على اشخاص وضعوا في حالة نوم جزئي (بين اليقظة والنوم): فقدرت علامات الترنح أو النشوء على (اشخاص تناولوا قدحاً من الماء قيل لهم (وهم في حالة نوم جزئي) ان الاقداح مملوءة بالراح. وحدث شيء معاكس في تجارب اخرى. وبدت علامات الانشراح او الانتعاش على سيدة قيل لها (وهي في حالة نوم جزئي) انها تشم رائحة عطر يتضوع اريجه. في حين ان المادة التي وضعت قرب انفها كانت غاز الامونيا الكريه الرائحة. وتناول بعضهم مادة مرة المذاق قيل له (وهو في حالة نوم جزئي) انها قطعة حلوى وخيل لبعضهم انه يرى مادة زرقاء اللون في حين ان لون المادة المشار اليها كان ابيض. وهكذا. واستطاع بعض الاطباء ان يحدث - عن طريق الايحاء اللفظي - اعراض حمل وهمي لدى بعض السيدات. كما استطاع بعض الاطباء ان يجروا عن طريق عمليات جراحية صغرى دون ان يشعر المريض بالألم. وقد عولج كثير من الاشخاص من دوار البحر بالايحاء اللفظي. وثبت ايضا ان كثيرا من حالات الصمم السايكولوجي ناجم عن الايحاء اللفظي. وللايحاء اللفظي هذا آثار تعليمية سلبية وايجابية كبيرة وكثيرة يتعذر الاحاطة بها. ولهذا يوحي المربون المعاصرون بضرورة استخدام الفاظ التشجيع وبعث الثقة بالنفس والاطراء ازاء الطلاب المتخلفين في دراستهم بدلا من كلمات التأنيب والاهانة.

هامش:

١)

Revesy,G. The Orijins and Pse - history of Language, London, LongMan, 1956 ٢) كما اتضح مثلا في

Dart,R, On the EnvoLution of Language and Articulate Speech, 1959 ٣) راجع

Du BruL, E.L. Erolution of the Speech, Spriosgfield, Thomas, 1958

٣) من طريف مايروى ان ابا علي الفارسي ينكر ذلك. فقد ذكر الرواة انه قال «كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من اهل اللغة منهم ابن خالويه.

فقال ابن خالويه: احفظ للسيف خمسين اسماً فتبسمت وقلتُ ما له إلا واحداً: هو السيف.

فقال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا؟ فقلت هذه صفات.